مقتطفات من كتاب
المساكين
مصطفى صادق الرافعي

حدوتة كتاب

إليك لأنك تعرف لماذا!!!؟

كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com

أخرج الرافعي كتابه هذا في سنة ١٩١٧، وهو الكتاب الرابع مما أَلَّفَ في المنثور، وثاني ما أَلَّف في أدب الإنشاء، ويعرِّف به الرافعي في الصفحة الأولى منه فيقول: هو كتاب «أردتُ به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس ...» وقدَّم له بمقدمة بليغة في معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنساني يقول فيها: «هذا كتاب حاولتُ أن أكسو الفقر من صفحاته مَرْقعةً جديدة ... فقد والله بليتْ أثوابُ هذا الفقر، وإنها لتنسدل على أركانه مزقًا متهدِّلة يمشي بعضها في بعض، وإنه لَيلفقُها بخيوط من الدمع، ويمسكها برُقع من الأكباد، ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة، وخيبة إلى همٍّ؛ وأقبحُ من الفقر ألَّا يظهر الفقر كاسيًا، أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية، أو المعاني التي يتمنَّى الحكماء لو أنها غابت في جماجم الموتى الأولين ...»

والكتاب فصول شتى، ليس له وحدة تربط بين أجزائه إلا أنه صور من آلام الإنسانية كثيرة الألوان، متعددة الظلال، تلتقي عندها أنَّة المريض، وزفرة العاشق، ودمعة الجائع، وصرخة اللهفان المستغيث؛ فهنا صورة «الشيخ علي» الرجل الذي يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس؛ لأنه يعيش في نعمة الرضا، وإلى جانبه قصة الغني الذي حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملَكَ المالَ، وهذه صاحبته الصغيرة التي انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع، فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة، وهذا ... وهذه ... من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع!

وأول أمر الرافعي في تأليف كتاب المساكين أنه كان في زيارة أصهاره في «منية جناج»، فلقي هناك الشيخ علي، والشيخ علي رجل يعيش وحده، ليس له جيب يمسك درهمًا، ولا جسد يمسك ثوبًا، ولا دار تئويه، ولا حقل يغل عليه؛ يجوع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رمقه، ويدركه النوم فيتوسَّد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق. رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس، وآمال الحياة، ولقيه الرافعي واستمع إلى خبره فعرف من فلسفته فلسفة الحياة، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ علي الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه أحدٌ بكلمة.

من نضرة هذه الحياة ألوان الجنة والنار،[٤] وما تشك في أنه واسع البسطة، عريضُ النعمة، طيب المكسِبَة، وهو على ذلك رقعةٌ خَلَقٌ[٥] في أذيال الفقر يجررها على أقذار الحياة وأدناسها، ولو نطق له الغنى لقال: دَعْنِي، فما كل ذي مَتربةٍ فقيرٌ، ولا كل ذي مَثْرَاةٍ غني.[٦] والفضائل قائمةٌ في الدنيا بالصغار والفقراء، ولكن مِن نكد الدنيا أن عنوانها هم

صفحة من الغيب

لما أجمعتُ النيةَ على طبع هذا الكتاب طبعته الأولى، رأيت فيما يرى النائم أني في دار الطبع التي اخترتها له، وقد سألني جامع الحروف أن أكتب المقدمة ليبدأ منها، فكتبتها ثمَّةَ ودفعتها إليه، ثم استيقظت وما برحتْ تدور على لساني، وتالله إنْ خَرَمْتُ[1] منها حرفًا؛ وهذه هي بنصها وكأنها فاتحة الكتاب من قلم الغيب:

هذا كتاب المساكين، فمَن لم يكن مسكينًا لا يقرؤه؛ لأنه لا يفهمه،[2] ومَن كان مسكينًا فحسبي به قارئًا والسلام.
الرافعي

كتاب المساكين الذي يقول عنه المرحوم أحمد زكي باشا:

لقد جعلتَ لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته.

كان رسول الله ﷺ يقول في بعض دعائه: «اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين.» فقال له أنس بن مالك رضي الله عنه: يا رسول الله، إنك لتُكثر من هذا الدعاء! قال: «يا أنس، إن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين.»[1]

وخُيِّر — عليه الصلاة والسلام — أن يكون له مثل أُحُدٍ[2] ذهبًا، فقال: «لا يا ربِّ، أجوع يومًا فأدعوك، وأشبع يومًا فأحمَدُك.»

قال الفيلسوف ديوجينيس الكلبي — وهو ذاك الذي رآه الإسكندر الأكبر فقال فيه: «لو لم أكن الإسكندر، لوددتُ أن أكون ديوجينيس.»:

ينبغي أن تُقدَّر ثروة الإنسان لا بأمواله ومستغلاته؛ بل بعدد الأشياء التي يستطيع أن يعيش غير محتاج إليها.[1]

ومن بديع قول هذا الحكيم: «يكون الأسد حبيسًا في قفصه، ولكن الحبس لن يجعله عبدًا لَمَن يُطعِمه.»

الجمال والحب

نصف الجنون في العاشق الذي يتجرَّد من الناس إلا من أحب، ونصفه في المعتوه الذي يتجردُ من الزمن إلا الحاضر. إنه ليس للمجنون عند نفسه ماضٍ ولا مستقبلٌ إلا يأمُلُ هذا ولا يذكر ذاك، وكل سعادة نفسه في هذا النسيان الذي طمس عليها وتركها كأنما تعيش في غير عمرها، بل في كل أعمار الإنسانية، بل بغير عمر. وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخص آخَر ممَّن مضى وممَّن يأتي ما دام الحب قائمًا؛ فالحبيب هو الحبيب وكل الناس بعده أدوات، وشخص واحد هو الألف واللام والحاء والباء، والناس جميعًا نقطة صغيرة ملقاة تحت الباء فقط.

وكان على هذه الأرض أغنياء مؤمنون فيهم من كرم الحس شِبْهُ الفقر، ومساكينُ مؤمنون لهم من كرم الصبر شِبْه الغنى، فهل تنقلب المدنيَّةُ من الغنى المحض والفقر المحض إلى مادة تخلق اللحمَ الحيَّ، وأخرى لا تخلق له إلا الظُّفْر الحيَّ ...؟

وكان اختراع الإنسان في المادة الجامدة؛ أَفتراه يجيء يومٌ على الناس يكون أعظم اختراع فيه للإنسان الأخير أن يُعِيدَ إلى الأرض إنسانَها الأول الكريم؟

وما دام للناس رغبةٌ يتنافسون فيها أو يرفعون من شأنها بالمنافسة؛ فثمَّ الحسدُ.

وما دام في الغيب أيامٌ وآمالٌ، وفي الدنيا فقرٌ وحسدٌ؛ فهناك الطمع.

وما دام لهؤلاء الناس من أشيائهم ما تحملهم أخلاقهم على الضنِّ به، أو يكون سبيله من الطبيعة أن يُضنَّ به؛ وفيهم الفقر والحسد والطمع؛ فثمَّ خبءُ السوءِ والرذيلةُ الماحقةُ، وثَمَّ البخلُ، وإن البخل وحده لفي حاجة إلى نبيٍّ يُصلِحه!

ولكلِّ امرئ سؤالٌ يتردد بين نفسه وبين السماء؛ فرجل يقول: اللهم هذه القوة فأين الرزق؟ وآخَر يقول: وهذا الرزق فأين القوة؟ وثالثٌ يصيح: هذه هي العافية وهذا الرزق فأين السعادة؟ والشيخ علي كأنه يقول: اللهم إنه لم يَبْقَ من الإنسانية إلا حُشاشةٌ تسوق بنفسها.[٤] وكل رجل من هؤلاء صورةٌ مقلَّدةٌ، فأين الأصل؟

لم يترك وراءه إلا سطرًا ضئيلًا في سجل الموتى،[٧] فكأن الخيرَ والشرَّ لم يُدركا هذا الرجل، وكأنه رُوح كُتِبَ عليها الحبسُ في جسمها، فلا تشهد أمرًا من ورائه حتى تنطلق، وكأنه حي على رغم الحياة!

وما أشبه نفوس الناس في هذه الحياة بالزجاج سُلِّط عليه نور الشمس؛ فما كان من طبعه رديئًا غير مصقول، أو مهملًا قد شاع فيه الصدأ، فذلك متى ألَحَّتْ عليه وقدة الجو حَمِيَ وتضرَّم في ذات نفسه؛ وما كان من طبعه صافي الماء بادي الرونق نقي الصفحة، رأيته في توقده واضطرامه كأنما يمجُّ من شعاع الشمس لهبًا يتطاير؛ فإن كانت الزجاجة قد أُخلِصت في سبكها، وصُنِعت على الوجه الذي يجمع الضوءَ ويعكس منه، وأُحكِمت من هذه الناحية؛ فهناك تبلغ من دقة الحس مبلغ الأنفس الرقيقة المهذبة، فلا تكاد ترسل عليها الشمس من نورها حتى يرجع فيها نارًا تلظَّى.

ومتي اعتبرنا الشقاء الإنساني وما يعترض الإنسان في طريق الحياة، رأينا الحق الذي لا مِرْيَة فيه أن هذا الإنسان حين تمشي راحِلتُه إلى القبر[١٨] لا يكون قد انتهى من الحياة كما يقال، ولكنه ينتهي حينئذٍ من الموت.

وقد رأينا الحكومات تجمع الأنواع من الجماد والنبات والحيوان تؤلِّف منها الكتب الحية على نسق الطبيعة نفسها، وهي تلك التي يسمونها «المعارض» و«المتاحف»، ولم نَرَ حكومة واحدة أقامت معرضًا حيوانيًّا لأشخاص الرذائل يُدرَس فيه علمُ المقابلة بين الطباع في الإنسان وبين الغرائز في الحيوان، وعلمُ الانحطاط الاجتماعي وفنُّ الطبقات السفلى من الحياة، وتُؤخذ منه أمثلة الاعتبار والموعظة والنصيحة في أبواب مختلفة، ولو قد فعلت ذلك أمة من الأمم، لَرأى الناس فيما يرون هناك من كبار اللصوص وأهل الإثم والشر والفساد عددًا كبيرًا من كبار ... من كبار الأغنياء، ثم لَرأوا كيف يتصل تاريخ الطمع بتاريخ البخل، وكيف يتصل هذا بتاريخ الغنى، ولَظهر لهم بطلانُ معانٍ كثيرةٍ مما يعده الناس في باب الحقائق؛ إذ لا تجد الرذيلةُ هناك مَن يكابر فيها أو يغرُّ بها أو يناضِل عنها، ولا صاحبَها نفسَه؛ لأنه في قفص من أقفاص المعرض، وكأنه ثمة معنى من الباطل محبوسٌ في شكل من البرهان على فساده!

وأما بعدُ، فإني قد وضعتُ هذه الأوراقَ وكتبتُ فيها عن الفقر وما هو من باب الفقر، لا لمحوِهِ ولكن للصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه. ثم كتبتُ عن الغنى وما إليه، لا رغبةً في إفساده على أهله، ولكن لإصلاح ما يَفهم منه غيرُ أهله، وأدَرْتُ الكلامَ في كل ذلك على الوجه الذي يراه الشاعر في ضَحِك الطبيعة ورقَّتها، دون الوجه الذي يعرفه الفيلسوف في عُبوس المادة وجفائها، ونَحوتُ به نَسَقَ العقل في بث خواطره للنفس؛ لأني أريد به النفس في مستقرها، وجئتُ به من مَبْرَق الصبح لا من غياهب الليل، وأطلعته من أُفُق الإيمان لا من قرارة الشك، وأردت به تفسيرَ شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس، فإن من ضرائب اللؤم وغرائز السوء في هذا الإنسان أنه ما ينفكُّ يحمل نِعَم الله ورحمته، وما لا حد له من العناية الإلهية، ولكن كما يحمل الطاووس ألوانَه وتحاسينه وزينتَه البديعة على ساقين مجرودتين في الغاية من القبح كأنهما من غراب!

وقد وضعتُ كتابي للمساكين، وأسندتُ الكلام فيه إلى «الشيخ علي»، وهو رجل ستعرف من خبره الذي أقصُّ عليك أنه الجبل المتمرِّد الباذخُ الأشم في هذه الإنسانية المسكينة التي يتخبَّطها الفقر من أذاه وجنونه ومسِّه.

وأنا أرجو أن ينزل هذا الكتاب من قلوب المساكين منزلًا حسنًا، وأن يتصل بأنفسهم الضعيفة، ويُفضِيَ إليهم ببثِّه ويُفضُوا إليه، فقد تكون مصاحبة البائس للبائس ثروةً نافعةً لاثْنَيْهما في معاملة الزمن.

رجلٌ كأنه قطعةٌ من الأبد، لا أمس له يتعقبه، ولا غد له يترقَّبه، بل الحياة عنده يقظةٌ طويلة، والموت نوم أطول.

فتحنا القبر وضَرَحْنا للميت العزيز، لم أقل إنه مات، بل قلت: إن موته قد مات! كأن الحي على هذه الأرض هو القبر الإنساني لا الجسم الإنساني، فإنك لتجد قبورًا من ألف سنة ولا تجد إنسانًا في بعض عمرها، أَمَا ترى همومَ الدنيا وأحزانَها كيف لا يخلو منها أحد، وكيف تخرج من النعيم كما تخرج من البؤس؟ ما أحسبها إلا صورًا من ظلمة القبر يجيء القبر فيها حينًا بعد حينٍ إلى ميته الذي لم يمت!

مَنْ يهرب من شيء تركه وراءه، إلا القبر، فما يهربُ أحد منه إلا وجده أمامه؛ هو أبدًا ينتظر غير متململ، وأنت أبدًا متقدم إليه غير متراجع، وليس في السماء عنوان لما لا يتغير إلا اسمَ الله، وليس في الأرض عنوان لما لا يتغير إلا اسمَ القبر.

أيها المتقاتلون على الدنيا والإنسان إلى حين! إن تنازع البقاء مذهبٌ فلسفي بقري لا إنساني؛ فإنها الثيران هي التي تجد من القوة أن تنتَطِح في المجزرة، وتنسى لِمَ هي في المجزرة!

أما إن في الحياة مِلْحًا وإن في الحياة حُلوًا وكلاهما نقيض؛ فالصريح أن يُخلَقَ منهما المستحيل وهو الملح الحلو، فإن لم يمكن؛ فالممكنُ من الحقيقة للإنسان أن يستحيل الإنسان فيموت!

وما يعرف الحيُّ أن الذاكرة فيه هي حاسة اللانهاية[٦] ألا حين يموت له الميت العزيز، فلا يكون في الدنيا وهو في ذاكرته بمعانيه وصورته لا يبرحها.

يابنيَّ، إن أفقر الفقراء ليس هو الذي لا يجد غذاءَ بطنه، ولكنه الذي لا يستطيع أن يجد غذاء شعوره، فلا تحسبن أن مع جنون الضمير وجفوته ومرضه سعادةً وراحة؛ لأن لذة المال لا تتجاوز الحواس الظاهرة، فهو يبتاع لها كل شيء مما تشتهي، ولكنه لا يستطيع أن ينيل القلب شيئًا إلا إذا جاءه بالخير والفضيلة.

انظروا في باطن الإنسان بالفضيلة التي هي من نور الله، وبالحقيقة التي هي من نور الطبيعة؛ فإنكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر إلا بمقدار شبرٍ واحد؛ هو مِلْءُ هذه المعدة!

قال «الشيخ علي»: فلا تسأل يا بني ما هي الحياة؟ ولكن سَلْ هؤلاء الأحياء: أيُّكم الحي؟

ولقد نقلوا في أساطير الأولين عن «ميداس» أنه بلغ من فَرْط الغنى أن لا يلمس بيده شيئًا إلا استحال ذهبًا، فأرادت آلهة الخرافات أن لا ينخدع الناس فيه ولا يسحر أعينهم أو يسترهبهم، وأن يعلموا أنه إنسان، وأن فرط الغني مُثْلةٌ به، فمسخ «أپولون» أذنيه فكانتا أذنَيْ حمار، ولعل فرط الغنى يا بنيَّ لا يكون في الأعم الأغلب إلا مع هذه الآذان! وما أملحها نادرة وأبدعها إشارة وأحكمها مُلحةً! فإن كل ما في الحمار لا بد منه لتكوينه حمارًا سويًّا، إلا أذنيه الطويلتين،[١٧] فلو حملهما إنسان كميداس رُزِق غنى الحيوانية، فهما برهانان على أنه ليس بإنسانٍ صحيح، ولم يستطع أن يكون شيئًا حتى ولا حمارًا من الحمير.

تعجبني كلمةٌ في الإنجيل لا أعرف أحدًا أحسن تأويلَها وبلغ حقيقتها. قال: «يجب أن تُولَدوا ثانية.» ووَضْعُها في هذا المقال هو تفسيرها؛ فإن الفرد يُولَد من الفرد، ولكنه لا يصلح على ذلك، بل يجب أن يُولَد في صفاتِه وأخلاقه من المجموع الإنساني لتقع الملاءمة، ثم إنه من أبويه يخرج من الحيوانية بغرائزها، ولن يفلح بها إنسانًا، فيجب أن يُولَد مرةً أخرى من جنسه الاجتماعيِّ بغرائز مكتسبة، ثم إنه يُولَد مهيًّأ للإقرار بنفسه وحدَها، فيجب أن يُولَد الثانية مهيًّأ لإنكارها وحدها.

وأنا يا بني في خاصةِ نفسي أكره الحرب؛ لأني أراها تُصوِّر بكل ألوان الهلاك والخراب فكرةَ العدم المبهمة على قطعةٍ من أديم الأرض، وأمقتها لأنها تلوِّث الحياة بدماء الرجال ثم لا تغسلها إلا بدموع النساء والأطفال، وأبغضها لأنها تدفن تاريخَها الصحيح للمستقبل ولا تترك للحاضر إلا تاريخها المشوَّه في أعضاء الجرحى، ولكن البغض يا بني لا ينفي الحكمة مما تبغضه، وما سرور نصف الناس إلا بما يكره النصف الآخَر!

كذا يضع الإنسان الكلمة لمعاني الله فيكذِّبه بمعانيها، ويا رُبَّ كلمة ملفوظةٍ وفيها لله كلمةٌ غير ملفوظة!

﴿اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لو أراد الله بالناس خيرًا لوضع في أبصارهم أشعة تنبث في أطواء القلوب، فتعرف ألوان العواطف وتميِّزها لونًا من لون، ولكنه جعل الوجه غطاءً على معاني القلب، ثم سلَّط الفكر على معاني الوجه ومعارفه يصوِّر فيها ما شاء مما له أصلٌ في الحس وما لا أصل له، حتى ليختبئ الإنسان عن الإنسان وهو مكشوفٌ لعينيه!

سبحانك اللهم وبحمدك
نشهد أن لا إله إلا أنت
نستغفرك ونتوب إليك

إلى لقاء مع ملخص لكتاب جديد

حسابات حدوتة كتاب

للاندرويد
https://play.google.com/store/apps/details?id=com.BookHdotah

للكمبيوتر والايفون
https://www.cap-khir.com/android/BookHdotah/PHP/Book_show_simple.php

يوتيوب
https://www.youtube.com/channel/UCTG5AYoNunvwpHnPEybZxRg

فيسبوك
https://www.facebook.com/hdoott

واتساب
https://chat.whatsapp.com/GRX8q4psOOVEsaVTvcYLeD

تلجرام
https://t.me/Book_hadotah

شاركونا كتبكم على هذا الرابط
https://www.cap-khir.com/android/BookHdotah/PHP/coments_form.php

او في قسم (شاركنا كتاب) بقائمة التطبيق

كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)

www.cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com
+201001490077 - +96890968355